الفلسطيني، ومن تراثه النضالي، ومن ابداعات الشعب العفوية، والمنظمة. ويمكن قراءة ذلك بوضوح عند حصر العمليات التي قامت بها الثورة الفلسطينية بعد الانطلاقة، والتي لا يزال الشعب الفلسطيني يمارسها، والمقارنة بين عمليات العنف، واللاعنف، السابقة على الانطلاقة الفلسطينية، والتي كان الشعب الفلسطيني يقوم بها بدوافع عفوية مرتبطة، كلها، بالتمسك بالأرض، والبيت، ومحاولة التصدي للمغتصبين الصهيونيين، واستخلاص كل ما يمكن استخلاصه من بين أيديهم من خيرات الأرض وانتاجها.

ويعرف القاموس السياسي، قبل الانطلاقة، كلمات مثل التسلّل والتهريب ومهاجمة المستوطنات وذبح المواشي، بل والهجوم على حراس المستعمرات الصهيونية ومستودعاتها، وكانت هيئة الأمم المتحدة وأجهزة الأمن في البلاد العربية المحيطة تجمع هذه الاحداث في قوائم لا تزال في سجلاتها تحت عنوان «المتسللين»، بينما كانت السلطات الاسرائيلية تجمعها تحت عنوان «الارهابيين والمخرّبين»، وفي بعض الاحيان كان بعض أجهزة الأمن العربية يدين هؤلاء «المتسللين» بتهمة التجسس، ويعتقل منهم من يقع بين أيديه! وظل الحال على هذا النحو الى أن انطلقت الثورة الفلسطينية المعاصرة وأمكنها ان ترسّخ في الوجدان العربي، والعالمي، كلمات أخرى مثل الفدائيين، والمقاتلين من أجل الحرية، وان ظلت مطاردتهم من بعض أجهزة الأمن العربية، والدولية، قائمة.

ان تطوّر كلمة «متسلّل» و«مخرّب» «وارهابي» الى فدائي، ثمّ الى منتفض، يحكي حكاية مسار الجهاد الفلسطيني، ويكشف ان ما جاءت به «فتح» كان هو عنصر التنظيم الواعي الذي يجمع الجهود في اتجاه واحد، هو اتجاه فلسطين، وضد عدو واحد، هو العدو الصهيوني. وفي سبيل ذلك، عملت «فتح» على ابراز اهمية الاستقلال الفلسطيني اطاراً تجتمع فيه كل القوى والاجتهادات، ولم تكن المعركة سهلة على أي حال.

وعلى الرغم من كل التعرّجات التي سار فيها النضال الفلسطيني، وعلى الرغم من التشابك الشديد للعوامل المختلفة التي أثّرت فيه وتأثرت به، يمكن القول ان الثوابت الاكيدة التي كشف عنها مسار الثورة الفلسطينية هي، أولاً، الأرض (وهي ثابتة، بغض النظر عما يجرى عليها من تغيّرات ومن محاولة تغييب الاسم)، وثانياً الشعب (وهذا، بدوره، اثبت تمسّكه بهويته الوطنية الفلسطينية، على الرغم من تشتيته داخل، وخارج، الوطن)، والثابت الثالث الأخير هو السعي المستمر من جميع الفلسطينيين الى العودة الى الوطن واستعادته، بغض النظر عن أشكال هذا السعي وتنوّعها.

ولقد تعرّضت الأرض (فلسطين) لتغيّرات فعلية وسياسية، حيث حرص العدو الصهيوني على تغيير طابعها وازالة ملامحها (ازالة أكثر من ٣٠٠ قرية فلسطينية بعد العام ١٩٤٨) بالاضافة الى تغيير اسمها المعروف عبر التاريخ وفي الأدبيات السياسية. كما ان بقية هذه الأرض غُيِّر اسمها، بحيث لم يعد اسم فلسطين موجوداً من الناحية الرسمية، واقتصر على توصيف اللاجئين خارج فلسطين الذين سمّوا بلاجئين وحرموا من استخدام أية أوراق هوية تثبت هويتهم الوطنية المستقلة. ومع ذلك، فان الاحتفاظ بالأرض، والتمسك بها، ظل هدفاً لكل الشعب الفلسطيني الذي لم يتخل عن هويته الوطنية وحوّل رسم خارطة وطنه الى رمز يتعمّق في ذاكرة الاجداد، ويعيش فيه وعي الأجيال، وتتوزع أسماء مدنه وقراه على الاحفاد.

أمّا الشعب الفلسطيني، فقد حمل وطنه في وعيه وذاكرته ومضى يقاوم بالحصول، أولاً، على الرزق، ثمّ بالتغلّب على كل العقبات التي تقف أمام تعليم أبنائه، ثمّ بالعمل، بكل وسيلة سياسية ممكنة،